تمهيد: عصر الشارح

- الحياة السياسية فى عصر الشارح.
- الحياة الاجتماعية فى عصْرِه.
- الحياة العلمية فى عصْرِه.

أولا: الحالة السياسية [1]

اتفق المؤرخون على تقسيم سلاطين الدولة العثمانية إلى طائفتين، أو مجموعتين، تسمى الأولى: سلاطين الفترة الأولى وهم عشرة سلاطين أولهم: (عثمان الأول) وينتهون بالسلطان (سليم الفحم) أو (المشرع)، وقد حكموا فترة تقرب من ٢٦٧ سنة وقامت على سواعد معظم هؤلاء السلاطين عظمة الدولة من حيث التوسع الإقليمي المرحلي في القارات الثلاث، ومن حيث الأنظمة السياسية والعسكرية والإدارية.

أما المجموعة الثانية: فيطلق عليها سلاطين الفترة الثانية وعددهم ستة وعشرون؛ أولهم السلطان (سليم الثاني) وآخرهم السلطان (محمد السادس)، وحكموا فترة تقرب من ٣٥٧ سنة، وفي عهدهم توقفت حركة التوسع الإقليمي وشهدت فترتهم مراحل اضمحلال الدولة وتدهورها ثم سقوطها [2].

* من تاريخ وفاة الشيخ - رحمه الله - يمكن القول إنه عاش في نهاية القرن الثامن الهجري، والنصف الأول من القرن التاسع الهجري، وفي هذه الفترة في عام ٧٩١ هـ تولى الحكم السلطان (بايزيد الأول) وكان عمره في ذلك الوقت ثلاثين سنة، وبويع له بميدان الحرب في قونيه على إثر استشهاد أبيه في صحراء كوسوفا، فقاد جنوده إلى النصر على القوات الصربية، ثم انصرف إلى الاهتمام بالشؤون العسكرية، وما هي إلا فترة قصيرة حتى أصبحت الإمارات المسيحية في الأناضول تابعة للدولة العثمانية، فاستولى على كثير من بلاد النصارى وقلاعهم وأراضيهم، فكان طبيعيا أن تثير هذه الانتصارات العثمانية جزع الغرب، فقامت أوربا بتشكيل حملة صليبية جديدة حشدت فيها ١٣٠٠٠٠ جندي مسيحي مجهزين بصورة جيدة ومن خيرة وحدات ممالك أوربا [3]، وكان قائدها ملك المجر سيجسموند الأول، وجهز السلطان (بايزيد) جيشا قوامه ٧٠٠٠ جندي، وتقابل الجيشان واقتتلا قتالا شديدا، وانتصر السلطان (بايزيد) وأنزل بهم هزيمة قاسية، وفي سنة ٨٠٠ هـ وافق السلطان (برقوق) في مصر على طلب السلطان (بايزيد) بمنحه لقب: *سلطان أقاليم الروم*، وفي سنة ٨٠٢ هـ استفحل أمر (تيمور لنك) وأخذ يسلب بلاد الإسلام

---

(١) انظر - في ذلك -: تاريخ الشعوب الإسلامية كارل بروكلمان ص ٤١٨ وما بعدها، ط دار العلم للملايين ١٩٩٨ م، وتاريخ الدولة العثمانية: يلماز أوزتونا ١٠٣/١ وما بعدها، ترجمة: عدنان محمود سلمان، منشورات: مؤسسة فيصل للتمويل، والدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ص ٨٧ وما بعدها لـ: علي محمد الصلابي، دار: الفجر للتراث ١٤٢٥ هـ، والدولة العثمانية والشرق العربي د / محمد أنيس ص ٥٢ وما بعدها، ط: المكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٥ م.

(٢) انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها د/ عبد العزيز الشناوي ٣٤٥/١، ط / مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٤ م.

(٣) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ١٠٧/١، وتاريخ الشعوب الإسلامية ص ٤١٩، والدولة العثمانية عوامل النهوض ص ٨٧.

بآسيا الوسطى من أيدى ملوكهم حتى وصل إلى بغداد وعراق العرب، وفى سنة ٨٠٤ هـ زاد (تيمور) فى التسلط على أملاك الدولة العثمانية، فدعاه السلطان (با يزيد) للحرب، فبدأ القتال بينهما، ثم كانت معركة أنقرة التى هى أكبر معركة حربية حدثت على وجه الأرض خلال القرون الوسطى، فى هذه الحرب التحم اثنان من أكبر الحكام العسكريين فى التاريخ، وفيها تبارى لإحراز النصر قائدان تركيان مسلمان كانا يقتسمان الأقطار بين الصين والأدرياتيك وسعهما أبداوهما، ولذلك تعد هذه المعركة فى التاريخ التركى إحدى أكبر الكوارث التى أخرت نمو الدولة العثمانية وفتوحاتها نصف قرن، كما أطالت عمر البيزنط والقرون الوسطى خمسين عاماً، بالإضافة إلى أنها أخرت وحدة الأناضول سبعين سنة[1]، مهما يكن من أمر فقد هُزم السلطان (با يزيد) ووقع فى أسر (تيمور لنك) وعاش فى أسره سبعة أشهر واثنى عشرة يوما [2]، حتى وافاه الأجل فأرسل (تيمور لنك) جنازته إلى بروسه ودفن بجوار مسجده المعلوم بها، وعقب وفاته حصل اختلال كُلّى فى الممالك العثمانية، وتزاحم أولاده على السلطنة، ونشب النزاع بينهما واستمر هذا الحال فترة بلغت اثنتى عشرة سنة عرفت بدور الفترة، فاستطاع السلطان (محمد جلبى) وهو أصغر أبناء (با يزيد) أن يقضى على الحرب الأهلية فتغلب على منافسة إخوته حتى خلص الأمر له وتفرد بتولى أمر الأمة، فأدرك أن مهمته الأساسية هى إعادة الاستقرار، وإعادة بناء الدولة وتوطيد أركانها وتنظيمها حتى تسترجع قوتها، فقام بترميم أسوار المدن، وبناء المساجد، كما قضى على الحركات الثورية التى هددت كيان الدولة، ولاسيما حركة الشيخ (بدر الدين محمود بن إسرائيل) المشهور بـ (ابن قاضى سيماونه)، كما اتبع مع جيرانه سياسة سلمية، فعمل على تحسين العلاقات بينه وبين الإمبراطور (عمانويل) إمبراطور الدولة البيزنطية، كما عمل فى نفس الوقت على إقامة أواصر الصداقة بينه وبين أمراء الصرب[3].

وفى سنة ٨٢٤ هـ توفى السلطان (محمد) فى أدرنة فتولى ابنه (مراد الثانى) أمر الدولة خلفا له، وكان عمره لا يزيد على ثمانى عشرة سنة، وكان محبا للجهاد فى سبيل الله والدعوة إلى الإسلام، وكان معروفا لدى رعيته بالتقوى والعدالة والشفقة، واستطاع أن يقضى على حركات التمرد الداخلية التى قام بها عمه (مصطفى) والتى كانت تدعم من قبل أعداء الدولة خاصة الإمبراطور (مانويل الثانى)، فقبض على عمه فى شمال أدرنة وأعدمه، ثم صمم السلطان (مراد) على تلقين الإمبراطور (مانويل) درسا قاسيا فأسرع بفتح سالونيك سنة ٨٣٣ هجرية وأصبحت جزءا من الدولة العثمانية، ثم استطاع سنة ٨٣٤ هـ أن يفتح ألبانيا مُركّزًا هجومه على الجزء الجنوبى من البلاد، أما شمال ألبانيا فقد قاوم الفتح العثمانى، وفى سنة ٨٤٢ هـ استطاع أن يهزم

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ١/١١٠ - بتصرف -.

(٢) وانظر: الدولة العثمانية لـ الصلابى ص ٨٨ وما بعدها.

(٣) انظر: الدولة العثمانية والشرق العربى ص ٥٢ - بتصرف -، وانظر: الدولة العثمانية لـ الصلابى ص ٩٦.

المجر وأن يأسر منهم سبعين ألف جندي، وأن يستولي على بعض المواقع، ثم تقدم لفتح بلغراد عاصمة الصرب، ولكنه أخفق في محاولته، وسرعان ما تكون حلف صليبي كبير استهدف طرد العثمانيين من أوربا، ولوقع هذا الحلف بالعثمانيين هزيمتين فادحتين عام ٨٤٦ هـ، واضطر العثمانيون إلى طلب الصلح، وأبرمت معاهدة صلح لمدة عشر سنوات باللغتين العثمانية والمجرية، ثم رأى السلطان (مراد) في ابنه (محمد) نجابته وعرف إقباله وشهامته فأجلسه على سرير السلطنة، واختار لنفسه التقاعد والفراغ بحصن رضاه وكانت مدة سلطنته إحدى وثلاثين سنة، وفيها أذل الكفر والملحدين وأعز الإسلام والمسلمين[1].

* * * * *

ثانيا: الحالة الاجتماعية

المجتمع الإسلامي في عصر الشارح - رحمه الله - ***تكون من عدة طبقات، وتألف من عناصر بشرية متباينة الأشكال والألوان، مختلفة الأجناس والطباع*** - كما هو شأن كل المجتمعات - فقد كان منهم: ***العربي، والفارسي، والرومي، والكردي، ... المسلم، والمسيحي، واليهودي، والمجوسي***، وغيرهم، اجتمع ذلك الخليط العجيب وانصهر في بوتقة واحدة، فكون ***ثلاث طبقات على النحو التالي:***

١ - طبقة الخاصة. ٢ - الطبقة الوسطى. ٣ - طبقة العامة.

أما الطبقة الخاصة فتضم: ***السلطان، والأمراء، والوزراء، وكبار الجند، وكبار التجار، وكبار الملاك.***

أما السلطان: فكان هو ***السلطة المهيمنة على الجهاز السياسي والعسكري*** الذي انبثق عن نظام ***الإقطاع***، يقول بروكلمان: "... فقد كان الأمراء العثمانيون - أول أمرهم - تابعين إقطاعيين لسلاطين السلاجقة، ولكن (أورخان) ما لبث أن تصدّر للسيادة فضرب السكة باسمه، وأمر بأن يخطب له على المنابر، أما لقب السلطان الذي سبق للسلاجقة أن اصطنعوه بوصفهم حماة الإسلام فقد وفق (**يا يزيد الأول**) إلى الفوز به من طريق الخليفة العباسي في القاهرة... فلما تم للعثمانيين فتح القسطنطينية اتخذ (**محمد الثاني**) لقب سلطان البرين والبحرين... وبعد فتح (أدرنة) تسمى (**مراد الأول**) بلقب خليفة الله..."[2].

وأما منصب الوزير فلم يكن في بادئ الأمر سوى مستشار أول للسلطان، ثم أصبح بحكم نمو الإمبراطورية منصبا خطيراً تتعاظم أهميته مع الأيام، فلقد رفعه السلطان (**محمد الثاني**) مقاماً عليا، وجعله وصيا فعلياً على الإمبراطورية، فأصبح مسيطراً على فروع الإدارة كلها، منفرداً، مطلق السلطة في تدبير شؤون الدولة..."[3].

---

(١) انظر: الدولة العثمانية لـ الصلابي ص ١٠٢ وما بعدها.

(٢) انظر: تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٤٧٢ - بتصرف -.

(٣) انظر: السابق ص ٤٧٣ - بتصرف -.

وأما الطبقة الوسطى فكانت تضم ***العلماء، والفقهاء، والأدباء، وأصحاب المهن المقربين من طبقة الخاصة كالتجار، وأصحاب الصناعات.***

وأما طبقة العامة وهي التي تكون ***السواد الأعظم*** من ذلك المجتمع فكانت تضم ***أهل الزراعات*** الذين كانوا يشكلون أكبر كثافة سكانية في الإمبراطورية، فهم يعملون في الفلاحة والزراعة ويقومون بتربية المواشي، وكان القروي هو عماد الاقتصاد، إذ كان يقوم بدفع الضريبة عيناً أو نقداً عن عدد ما يملك من رؤوس الحيوانات [1].

وكانت تضم هذه الطبقة ***أرباب المهن وأصحاب الصناعات الصغيرة***، الذين كانوا يشكلون صنفاً مستقلاً له مكانته، وهم عماد الطبقة الوسطى، ويعيشون في المدن، وينقسمون إلى طوائف بحسب المواد التي يصنعونها ويبيعونها [2]، وكان هناك ***ذوو الحاجات والمسكنة*** الذين كانوا يأكلون في القصور والمطابخ العامة، ويأتي هؤلاء في نهاية الطبقات الاجتماعية [3].

* * * * *

ثالثاً: الحالة العلمية

نهضت دولة العثمانيين قوية، ولكنّ الصراعات العنيفة من أجل بقاء الدولة استنفدت قوى الدولة الفتية، فلم يبق لرعاية الاهتمامات الفكرية إلا القليل [4]، ومع توطيد أركان الدولة أصبحت للأقطار المركزية مكانتها وأهميتها في المجال الفكري... فقد تدفق العلماء من كل الأقطار إلى استانبول التي غدت حاضرة الإسلام، وإذا كان العلماء لم يقيموا هناك في أغلب الأحوال زمناً طويلاً - كانوا يستقرون حتى يحصلوا على وظيفة في وطنهم - فإن كثيراً من الأفكار دارت بين المثقفين في عاصمة الخلافة من خلالهم... ولم تكن للغة التركية المكانة الأولى إلا في مجال الإبداع الفني والتدوين التاريخي، أما في المواد العلمية فقد كاد الاستخدام يقتصر على العربية، بينما لم يُؤلّف بالتركية إلا الملخصات الموجهة لجمهور الشعب [5].

ومنذ قيام ***الدولة العثمانية*** والعثمانيون يهتمون بإنشاء المدارس، وهي المؤسسات التي تُدرس اللغتين ***العربية والتركية***، وكانت تتشكل من قسمين: ***متوسط، وعالٍ***، ولأجل الدخول في القسم المتوسط يجب إنهاء الدراسة الابتدائية، ثم تبدأ مرحلة المدرسة، كانت المراحل العالية في المدن الكبرى مثل: ***استانبول، والقاهرة، وأدرنة، وبورصة، وبغداد، والشام،***

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ٢ /٥٧٧ - بتصرف -.
(٢) انظر: السابق ٢ /٥٧٦، ٥٨٢ - بتصرف -.
(٣) السابق: ٢ /٥٧٤.
(٤) انظر: تاريخ الأدب العربي لـ بروكلمان ١٠/٨.
(٥) السابق ٩/٢٩١.

وحلب، *وقونية* ... إلخ، أما مدارس الدرجة المتوسطة فكانت موجودة في كل مدينة وقصبة، وقد أنشئت أول *مدرسة نظامية* في القطر العثماني في (*أزنيك*) في سنة ١٣٣٠ م، وبعد فترة وجيزة في (*بورصة*)، وفي الربع الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي[١] *فتحت مدارس عالية* في (*بورصة*) منها: *مدرسة دار الحديث*، ثم أسس (**محمد الفاتح**) مدرسة (*فاتح*) التي شكلت نواة جامعة *استانبول*... [٢].

ومن هنا بدأت *الحركة العلمية* تزدهر فوجدنا عددا غير قليل من العلماء في مختلف العلوم والفنون، منهم:

١ - (**مُصَنَّفَك**) علي بن محمد بن مسعود الشَّهْرُودي البِسْطامي علاء الدين والملة، ولد بخراسان، ونشأ في هراة، ثم انتقل إلى قونية معلما، فالأستانة، وتوفي بها سنة ٨٧٥ هـ، من كتبه: شرح المصباح في النحو، وحاشية على المطول، وحاشية على الكشاف، والحدود والأحكام في فقه الحنفية [٣].

٢ - (**الفرَيمي**) أحمد بن عبد الله الفريمي، قرأ على المولى شرف الدين الفريمي، وصار من أفاضل دهره وعلمائهم العاملين، استوطن مدينة القسطنطينية إلى أن مات بها سنة ٨٥٠، أو ٨٧٩ هـ، كان السلطان (**محمد**) يعظمه ويقبل قوله، من مصنفاته: حواشٍ على شرح اللب للسيد عبد الله، وحواشٍ على شرح العقائد للتفتازاني، وحواشٍ على التلويح [٤].

٣ - (**القُوشجي**) علي بن محمد القُوشجي، أصله من سمرقند، كان ماهرا في العلوم الرياضية، ثم ذهب إلى بلاد كرمان فقرأ على علمائها، وصنف فيها: شرح التجريد للطوسي، وعاد ثم رحل إلى تبريز فأكرمه سلطانها الأمير (**حسن الطويل**) وأرسله في سفارة إلى السلطان (**محمد خان**) سلطان بلاد الروم، ليصلح بينهما، فاستبقاه (**محمد خان**) عنده، فألف له رسالة في الحساب سماها (المحمدية) ورسالة في علم الهيئة سماها (الفتحية) فأعطاه (**محمد خان**) مدرسة (آيا صوفية) فأقام بالأستانة وتوفي بها سنة ٨٧٩ هـ [٥].

٤ - **يعقوب بن خضر** جلال الدين كان مدرسا في (بروسة) ثم ولي قضائها إلى أن مات بها سنة ٨٩١ هـ، من مصنفاته: حواشٍ على شرح الوقاية لصدر الشريعة، وتعليقات على المواقف

---

(١) وهو ما يقابل النصف الأول من القرن التاسع الهجري.

(٢) انظر: تاريخ الدولة العثمانية ٤٨٥/٢ - بتصرف -.

(٣) انظر ترجمته في: البدر الطالع ٤٩٧/١، وهدية العارفين ٧٣٥/١، والأعلام ١٦١/٥.

(٤) انظر ترجمته في: الطبقات السنية في تراجم الحنفية ٤٢٩/١، وكشف الظنون ١٩٢/١.

(٥) انظر ترجمته في: البدر الطالع ٤٩٥/١، وكشف الظنون ٣٤٨/١، والأعلام ١٦٢/٥.

[1].

٥ - (اللاذقي) محمد بن عبد الحميد اللاذقي كتب في حكم (يا يزيد الثاني) الفتحية في علم الموسيقى، وزين الإحسان في علم التأليف والأوزان [2].

وبين هذه الكوكبة من العلماء العاملين نشأ الشيخ يعقوب بن حاجي عوض - رحمه الله -

* * * * *

(١) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٣٥٢/٧، وهدية العارفين ٥٤٦/٢، والأعلام ٢٥٨/٩.
(٢) انظر: تاريخ الأدب العربي ٤٢٢/٩.